الفصل التاسع و العشرون

العطاء الزوجي

كان أحمد يعاني الحصر ولا يحتمل تلك الإقامة الجبرية التي كـان ضحيتها، وكثيرا ما كانت مها تراه واجما مفكرا، فلا تعـرف الأسـباب العميقة لانكماشه وتجافيه حتى كان ذات يوم وقع نزاع بينهما وهي تهـم بالخروج للذهاب الى دار الإذاعة كي تزودها بـبعض مـن قصـصها القصيرة التي كتبتها في الآونة الأخيرة. قال لها ساخرا:

-أرى أنك أصبحت رجل البيت. هذا ما كنت تشتهينه دائما. ألـيس كذلك؟ وضحكت مها:

-لابأس أن نتبادل الأدوار أحيانا. ولكن ثق أن هذا لايجعلني أشـعر بالمتعة، انني أعتز بكوني امرأة، الا أن للضرورة أحكام.

-ليس من ضرورة لخروجك من البيت وزوجك في هذا الوضع الذي يجعله مبتور الجناح. ولكن ليس لديك إحساس بما يعانيه زوجك.

-أنا ليس لدي إحساس؟

-نعم، انك لاتبحثين الاّ عن مجدك. وتجدينها فرصة ذهبية أن تحققي ذاتك. قد يحالفك الحظ وتنجحين، ولكن ثقي أنك لن تبحري بعيدا وحدك، وسيكون لهذا ثمن. امرأة وحيدة وزوجها ملاحق. لن تجدي أحدا يمد لك يد المساعدة دون غرض. فاصبري قليلا حتى يفرجها الله.

-انني أصبر.

-لاتعرفين الصبر. ليس عندك اعتدال ولا قناعة.. جامحة.. تريدين أن تبهري من حولك.. أما فضيلة النضال اليومي المتواضع في بيتك فلا تروقك. ان رجلا مثلي لايمكنه الاعتماد الاّ على من تملك هذه الفضيلة.

-هل أقصر في واجباتي؟

-انك لاتقصرين، ولكنك متذمرة مستاءة.

-هل مانحن فيه يبعث على رضى النفس؟

-طبعا، وربما أنا قعيد البيت متهم مقصر في حقك.

-لاتقل هذا ياأحمد. انني أمقت نفسي لأنني عاجزة عـن أن أكـون عونا لك.

-من يريد أن تكوني عونا له؟

-انني أخجل أن أكون عبئا على أحد.

ثار غضبه فجأة وقال:

-أهلي ليسوا أحدا.. انهم يحتملوني في وقت الضيق..

وتأوه قائلا:

-ان رجلا مثلي قد نذر نفسه لوطنه ما كان يجب أن يتزوج أبدا!.

تطور حديثهما فجأة ليكشف عن الذي يكتمه ويزعجه.. تأكـد لهـا ماكانت تخشاه.. طالما ساورها ذلك الظن فاستبعدته ولكنه تفوه بـه. واذا كان لها أن تأخذ كلامه محمل الجد ولا تعتبره كلاما يقـال فـي سـورة الغضب فان الأمر رهيب بالنسبة اليها. انه يخشى جموحها، انـه لايثـق بها، انه يحتقر عطاءها.

لخص كل شيء بجملة نزلت عليها كالصاعقة:

-أنت من النساء اللواتي لايحترمن الرجل الاّ في السرير.

يجب أن تصدق هذه المرة صورتها في ذهنه.. ان النعوت التي نعتها بها لايتفوه بها الاّ رجل يحتقر عطاء المرأة الزوجة.. ان هذا العطاء هو الذي أفقده الثقة بها وجعله في ريبة منها يدفعه لعزلها عن الناس وعـن العمل المنتج. انه لايجد لها مكانا الاّ في التدريس، في جو نسائي لاغبار عليه، فاذا خرجت من هذا المجال فلا بد أن تكون متهمة في عينيه. انـه

وراء كل سورات غضبه وكل سوء ظنونه، انه جريمتها في نظـره ولا تعرف لنفسها جريمة سواه.

هكذا اذن يامها!

أنت التي قدست العطاء فلسفة قبل أن تعرفي رجلا وخيل اليـك أن أكبر جريمة تقترفها المرأة الزوجة هو أن تكره العطاء فتدفع بزوجها الى كل الحماقات.

أنت التي كنت ترين أمامك أمثال هؤلاء النساء الفاضلات وتعـرفين مدى تعاستهن وتعاسة أسرهن.. وتعرفين أن بيوتهن ينخر فيها الـسوس بالرغم من كل مظهر مزيف يختفي وراءه الداء الدفين.

أنت التي رأيت من بين هؤلاء من تجعل حياتها فناء في خدمة الأبناء كما فعلت أمك، أو تجدد الزوج لتجد العيب فيها وفي النقص الوجـداني الذي تعانيه كما فعلت احدى صديقاتك، أو تدفن نفسها بالإرواء الذاتي كما تفعل ملايين النساء النرجـسيات الفاضـلات اللـواتي يكـرهن الحيـاة الزوجية..

أنت يامها من دون النساء تتهمين من الرجل الذي تحبين, من أجـل عطائك!

كيف يكون تقدميا ويجهل حقيقة هي أعظم الحقائق في الحياة؟ أيؤمن بالشرف المكذوب، بفضيلة الإرواء الذاتي، بالزوجة المقسورة تهب جثة، بالنافرة تعطي بثمن كنساء الشوارع؟

كيف لم يدرك حتى الآن أن المرأة الوحيدة التي لايمكن لها أن تبدل زوجها ولا تخونه حتى في أحلامها هي المرأة التي عرفت النشوة وجمال العطاء معه، هي المرأة التي تحب، والتي طهرها الحب فجعلها عفيفـة، ووسع الحب وجدانها ليفيض حبا للإنسان والخير والجمال؟

هذه هي المرأة التامة الأنثوية التي يبحث عنها الرجل منذ الأزل.

كيف يخطئ، كيف يخلط بين هذا العطاء وبين النزوات العابرة، بين انسجام كلي في عاطفة الإنسان وبين فوضى هذه العاطفة؟ كيف لايعلم أن شهوة التنقل لم تكن يوما دليلا على غزارة العاطفة بـل علـى نقـصها وتفاهتها. ان بائعات الهوى هن أشح الناس رغبة، وعندما تشعر احداهن يوما بجمال العطاء تبدأ مأساتها لأنها تفقد القدرة على التنقـل والعبـث بقلوب الرجال!.

رهيب أن تتصور وهو يعانقها بكل تلك اللهفة أنه يستمتع بها ويحتقر عطاءها. لعله موقفه الكامل من الحب نفسه، موقف لاتحسده عليه، وليـد تربية خاطئة وكذب اجتماعي. انه تدنيس لأقـدس عواطـف الإنـسان! عواطف الخلق الأزلية.

أتراها واهمة أم هي على حق؟ كيف وهو زوجها لاتدري حقيقتـه، لاتدري الخلفيات لطبيعة عاطفته؟ ان هذا السؤال كان يكمن دائما خلـف كل تصرفاتها وثورة أعصابها. وخيبة الأمل التي تشعر بها تكاد تدفع بها الى الإنهيار.

ليست القضية بالنسبة اليها قضية إرضاء، بل قضية موقف وتبـادل ثقة واحترام. انها ليست امرأة جامحة ولا الجنس هدفا لها. ولكنها لم تأت اليه معقدة باحتقار الجنس بل كانت تجد فيه عاطفة صوفية.. فأي شـيء أروع من خلق حيوات جديدة، وأي شيء أحلى من السكينة التي يشعرها الإنسان مع من يحب؟

أترى ذلك الإختيار العاجل كان موضع اتهام في نظره كأنمـا هـي تهرب من العزوبة مع أول رجل تصادفه؟ ولكنها تعرف نفـسها تمامـا وتعرف ما تريد، ولها حدس يصدق كثيرا بالناس. ان الإنسان لايـشتاق

الزواج الاّ ممن يمثل أشواقه ورغائبه. فلو كانت تشتهي المـال لجعلـت هدفها أن تتزوج تاجرا ثريا، ولو كان هدفها الجنس لبحثت عـن رجـل أكثر شبابا ووسامة وإغراء، ولكنها كانت تبحث عن إنـسان يمكنهـا أن تحبه وتحترمه معا، ويبادلها الحب والإحترام، ولا يقص لهـا جناحيهـا ويعرقل موهبتها في النمو. وكانت تعلم أن حلمها عسير، ومن الممكن أن لاتصادف مثل هذا الرجل أبدا، ولكنها وجدته، رجل مبدأ شريف واسـع الأفق ذكي الفؤاد عاطفي الطبع، خصب الوجدان، فلم تتردد لأنها كانـت تعرف ما تريد ووجدت من تريد!.

قال لها حينذاك أن من عيوبه الغيرة وشـدة الحـساسية فـضحكت وكانت موقنة بأن الثقة تمحو الغيرة، والتفاهم لايدعو للتوتر والحساسية، كانت واثقة من نفسها وحبها، فهي ليست من هواة اقتناص القلـوب، ولا يعذبها شيء بقدر مايعذبها إثارة رغبة لاتستطيع إرواءها. فمن يفعلن هذا هن أسيرات الإرواء الذاتي ليصنعن حلما ينتشين به، لاالفتاة التي يدفعها نحو الرجل رغبة الخلق، والزوجة التي عرفت جمال العطاء!.

كانت تبحث عن رجل يشاركها سخاء قلبها ويكون جديرا أن تـسلمه مصيرها، ولم يكن هناك من قوة تجعلها تعيش قرب رجل لو خاب أملها فيه، ولذلك أرادت أن يكون الرباط المادي بينهما أوهى ما يكـون حتـى يتأكد لديها بأن العلاقة بينهما هي علاقة الطبيعة التي لا انفـصام لهـا، لامجرد حبر على وثيقة زواج.

فماذا حدث؟ أية روح شريرة جثمت بينهمـا؟ انهـا تجمـع صـور الماضي لتخلص الى نتيجة بأنها كانت هدفا مستمرا لهجمات تملأ قلبهـا بالشعور الحزين، وانتهى الأمر الى مسح وتشويه لكل حقيقتها.

طالما سهرت الليالي تسأل عن سببها. يفاجئها وهي خاليـة الـذهن فتصعقها الدهشة، أو يكتم ما به لينم في ضيقه وتجهمه. وتجلس تفكر في الأمر، تشخّصه كما يشخّص الطبيب الداء، متى بدأ وماذا حدث خـلال هذه المدة. كان يضحك ويمازحها منذ ساعات، اذن فالأمر الذي أزعجـه قد حدث بعد هذا. من رأت وماذا فعلت وماذا تكلمت؟ كانت تلك المواقف مضنية.. لو لم تكن تحبه ذلك الحب لتركته يحرق أنفاسه حتـى يعتـاد شخصيتها بألوانها الطبيعية العفوية من صراحة وعدم تكلف. ولكن الحب يكبلها.. لاتريد أن تشغله بنفسها وهو الذي يناضل ويكرس حياته لمهمات كبيرة، ولكن ألن ينتهي هذا الأمر بها الى تشويه شخصيتها؟

يريدها أن تبقى في الظل وتفنى في البيت وتربية الولد، وينتقدها لأي تقصير، ولكنها تفعل الواجب ولا تؤمن بالفناء بل بالتوازن، وتحتج فـي أعماقها بأن الفناء انحراف في حياة المنزل وليس انسجاما، وأنـه دليـل على نضوب العلاقة الزوجية وعلى انتهاء الإنسان كمبـدع، وأن كتـب الأدب والحياة حافلة بالنساء اللواتي أفنين العمر في الأبناء ولم يزدن في نجاحهم، بل كن عثرة في سبيل سعادتهم. التضحية تطلـب ثمنـا غاليـا أنانيا. انها تجعل المرأة أما سيئة لأنها لاتحتمل أن يخطفهم منها أحـد.. وتحطمهم دون أن تدري بتسلطها. فاذا بدر منها في تعليق بعـض هـذا الإحتجاج فهو يتهمها بأنها تتنصل من تبعاتها نحو طفليها، وأنها تصرف ذهنها خارج المنزل أكثر مما تصرفه داخله.

كان يمكن لمها أن تغفر له لو أنه من صنف آخر غير أحمد التقدمي النير الفكر. أما أن يكون هو بالذات من يعرقل نموها الانساني فهذا كان يمضها بما لايمكن احتماله. انه يعلم أنها لاتتنصل من تبعاتها وأنها تقوم بواجباتها بأكثر وأدق مما تفعل أية امرأة من أية طبقة كانت، لأنها تحمل

عبء المرأة المثقفة وعبء المرأة العاملة بقيامها بكل المهام التوفيرية في البيت دون أن يكون لها امتياز وضع إحداهما.

وتمر بها وبه أيام عصيبة وتصبح الجفوة بينهما مما لايمكن احتماله وينتهي الخصام كما بدأ لأوهى الأسباب، ودون أي حوار. ويبدو لها أنه يراجع نفسه ويدرك خطأه في حقها، وتشع البسمة في وجهـه ويـضحك ضحكته الخلابة فلا تستطيع الا أن تجد في الحياة معه ومن أجله أهم ما تصبو اليه!.

* * *